فى النقـــــد

للدكتور محمد حسين هيكل بك

عزيزى الأستاذ الزيات :

أثرت فى أعداد « الرسالة » الأخيرة حواراً طريفاً حول « النقد » بمقالك الذى نشرته فى عددها الذى صدر فى ١٨ مايو الماضى ، والذى عقب عليه الأستاذان أحمد أمين وطه حسين . وإننى أغبطك كصحفى لما صادف موضوعاً أثرته من هذا النجاح . وأى نجاح أكبر من أن يدخل حلبة الحوار صديقان من كبار كتاب مصر وأدبائها ، فيقلّبان من المواضيع فى « النقد » ما كان ركد ، ويشيران إلى مواضع ضعف فى كتابنا وأدبائنا ، شيوخاً وناشئين ، ويصفان علة ركود النقد مع يقظة الأدب ؛ ويدعوانني بذلك للاشتراك فى حديث بعد العهد بيني وبينه ؛ وما كنت أظننى أعود من بعد اليه

ولم يكن انصرافى عن النقد عن ايثار للسلامة ، أو مداراة للجمهور ، أو اندفاع فى تيار هذا الجمهور بعد أن كنت أريد جذبه إلى تيارى . كلا ! وإنما كان انصرافى عن النقد وعن ألوان غيره من الكتابة أننى أيقنت أن فيما أنا بسبيله اليوم من مباحث فى سيرة النبي العربى وفى عصره ما هو أجدى على القراء وعلى الغرض الذى أرجو للجماعة الانسانية أن تبلغه مما كنت بسبيله من قبل . ولست أريد الآن أن أصف كيف حدث هذا التطور فى نفسى فذلك أمر يطول بيانه . وإنما ذكرت منه ما ذكرت لأبين به السبب الذى انصرفت من أجله عن النقد وما يتصل به . وما أحسب منصفاً إلا يرى أن ما يستنفده البحث فى السيرة والاتصال بعصرها وبيئتها من وقت وجهد كافٍ ليشغل الباحث عن غيره من الأمور ؛ هذا ولو أنه كان منقطعاً لهذا البحث . ما بالك إذا شغل بالصحافة وبغير الصحافة من شؤون لا تدع له فرصة التنقل من قراءة إلى قراءة ، وتدبر كل ما يقرأ تدبراً يسمح له بنقده وتقديره نقداً عادلاً وتقديراً نزيهاً ؟

ولست أريد بهذا الذى قدمت أن أعتذر عن انصرافى عن النقد ورغبتي عنه . فأنا أرى هذا الانصراف طبيعياً فى شأنى وشأن كثيرين غيرى ممن عنوا بالنقد وتوفروا عليه منذ عشرين أو خمس وعشرين سنة مضت ؛ أى فى بدء حياتهم فى الكتابة والأدب . وهو طبيعى إلى حد لا يجوز معه توجيه اللوم الينا . فأكثر الكتاب يبدأون حياتهم فى الكتابة بالنقد ثم ينصرفون عنه . هذا شأنهم فى أوربا اليوم . وذلك كان شأنهم فى غير أوربا من قبل . وهذا شأنهم لأنهم يقرأون يومئذ وهم شبان ليستزيدوا من العلم ، وهم ينقدون ليمحصوا هذا العلم ، وهم يفتنون فى النقد ليكونوا لأنفسهم ملكة التقدير . لعلهم لا يفعلون ذلك متعمدين . لكن ذلك هو الواقع فى أمرهم ؛ فشأنهم فى ذلك شأن الشجر ، وشأن كل كائن حى أول نشأته ، هو يمتص من الغذاء كل ما حصل عليه أو اتصل به ، وهو يصفى هذا الغذاء ويتمثله لينمو بالبقية الصالحة منه للنمو ، وهو يفرز ما ينقده ولا يسيغه ؛ فاذا بلغ حد النمو قل ما يتناوله من الغذاء ، ودقق فى اختيار هذا الغذاء القليل الذى يتناوله ، لأنه يكون فى شغل عن النقد والتمحيص والافراز بالأثمار والانتاج ، وإن استنفد بأثماره وإنتاجه قوته حتى ينتهى من ذلك إلى استنفاد حياته

فالنقد الذى يبدأ به الناشئون من الكتاب والأدباء حياتهم هو هذا التمثل للغذاء الذى يتناولونه . وهم يعرضون هذا النقد على الجمهور ليسمعوا حكم الجمهور على نقدهم ، وليطمئنوا إلى أنهم أحسنوا التمثل . والجمهور يطرب لما يراه من آثارهم طربه لترعرع الناشئ وفتوة شبابه . فاذا انقضت هذه الفترة من الحياة مال الكاتب أو الأديب مع سجيته ، واختار الطريق الايجابى الذى يسلكه فى انتاجه . وقد يتفق هذا الطريق وماضى حياته الأدبية ، وقد يكون اتجاهاً جديداً فى هذه الحياة يحسبه بعضهم مناقضاً لما بينا هو أثر محتوم من آثارها ، لم يكن لصاحبه مفر من الاتجاه فيه ما دام سليم المنطق حسن التقدير

صحيح أن من الكتاب من يجعل النقد رسالته الأدبية طيلة حياته ، وقد تتصل سائر آثاره بالنقد ولو بمقدار . ولقد كان من هؤلاء فى فرنسا عدد غير قليل أمثال سانت بيف وجول لمتر . لكن هؤلاء إنما جعلوا النقد رسالتهم فى الأدب غير مكتفين بما يظهر من الكتب فى عصرهم . وهم قد جعلوا النقد رسالتهم

[البقيـــة على صفحة ١٠٣٩]